

حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية

د. عماد الدين خليل *

قبل المضي لاستقصاء وتحليل عوامل تدهور الحضارة الإسلامية، لابد من تأكيد جملة من الملاحظات الضرورية بهذا الخصوص.

وأولى هذه الملاحظات هي أن التدهور لا يعني - بالضرورة - السقوط النهائي، والانسحاب من الميدان، على الأقل بالنسبة لحضارة - كالحضارة الإسلامية - تستمد مقوماتها في المنشأ والضرورة من مرتكزات هذا الدين متمثلة بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ اللذين يتضمنان شبكة الشروط المناسبة والمحفزة للفعل الحضاري، بخلاف العديد من الحضارات الأخرى التي اختفت - تماماً - عوامل أو شروط نشوئها، وأصبح مستحيلاً استعادة قدرتها على الفعل ككرة أخرى. فالذي يتعرض للتدهور بالنسبة للحضارة الإسلامية هو الفعل الحضاري نفسه، وليس أصوله العقديّة بطبيعة الحال.

والملاحظة الثانية هي أن التدهور لا يحدث فجأة، أو عبر فترات زمنية قصيرة، وإنما تتجمع روافده من هنا وهناك خلال أزمان متطاولة قد تستغرق - في أغلب الأحيان - القرون الطوال. هذا إلى أن التدهور لا ينفرد به عامل واحد، وإنما هو وليد جملة من العوامل التي يتداخل بعضها مع البعض الآخر بحيث يصعب - أحياناً - فك الارتباط بينها من أجل تبين الحجم الحقيقي لكل منها.

إن ظاهرة التدهور الحضاري تتشكل ببطء وعلى مكث، وتسهم في صنعها عوامل

* دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس بالقاهرة 1968م؛ أستاذ بكلية التربية بجامعة الموصل، ومدير المتحف الحضاري بالموصل (العراق).

ومؤثرات شتى: عقدية وسياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية وجغرافية وأخلاقية... إلخ. ويمكننا - في ضوء ذلك - أن نضع أيدينا على حشود السلبيات المدمرة التي يمكن أن تتمخض - على سبيل المثال - عن أية تجربة سياسية أو إدارية تلتقي في قطبيها: القيادة الظالمة والقاعدة الساكنة، أو أية ممارسة اجتماعية يتقابل فيها - بشكل حاد - الترف والحرمان، أو أي مجتمع يغفل عن أهدافه العقدية الأساسية التي قام عليها، ولأجلها، وتفشو فيه الممارسات غير الأخلاقية الهابطة، أو أية حقبة يغيب فيها التوازن بين الثنائيات التي ينطوي عليها الوجود الحضاري... إلخ.

هذه الحشود التي تبدأ بمجزئيات وتفاصيل يومية صغيرة ومتقطعة ومستعصية على الرؤية والضبط والتحديد، ولكنها تتجمع شيئاً فشيئاً فما تلبث أن تشكل تيارات خطيرة جارفة تدمر في طريقها كل شيء، وتوقف كل نشاط فعال، وتصيب بالتفكك والاضمحلال كل إنجاز أو إبداع.

إن منحنى الإنجاز الحضاري، بمفهومه الشامل، يرتبط بهذه المسائل جميعاً، وحيثما تراكمت وطفئت السلبيات المتمخضة عن هذه المسلمات، كفت طاقة الإنسان والجماعة عن مواصلة صعود المنحنى وآل الأمر إلى الهبوط والتدهور.

إن التفسير الأحادي لسقوط الحضارات، أو تدهورها، أي رد الظاهرة إلى عامل أو مؤثر واحد، كذلك الذي اعتمدته المثالية، أو المادية التاريخية، أو التفسير الاقتصادي، أو الجغرافي، أو العرقي... إلخ. إنما هو تقليد فكري عتيق عفا عليه الزمن، ولا بد من الاستعاضة عنه بالتفسير الشمولي الذي يستقصي العوامل والمؤثرات جميعاً، وهو أقرب التفاسير للتصور الإسلامي الذي يضع الأمور كافة في مكانها الحق.

أما الملاحظة الثالثة، فهي أن الحضارات كافة، بما فيها الإسلامية، عرضة لتحديات التدهور والانحيار. بمجرد غياب شروط الفعل الحضاري، أو فقدانها الحد الأدنى من التوتر المطلوب، وليس ثمة حصانة إلهية مسبقة لهذه الحضارة أو تلك بسبب نزوعها الديني أو الإيماني. فإن استمرارية الحضارة رهن بما يصنعه أبنائها أنفسهم في ضوء جملة من الضوابط والمعايير والعوامل التي إذا أسيء التعامل معها سيقت الحضارة إلى

مصيها المحتوم. فليس ثمة في سنن الله في الخلق ونواميسه في العالم محاباة أو مداواة، وحاشاه، وإنما هي الأسباب التي تقود إلى نتائجها المنطقية العادلة.

في سورة آل عمران التي تتحدث عن هزيمة المسلمين في معركة أحد (3 هـ) ترد الآيات: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (137) هَذَا بَيَّانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138) وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَلَئِكَ الْآيَاتُ لِنَادُولِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (140) ﴿آل عمران﴾.

إن القرآن الكريم يعرض في هذا المقطع ذي المغزى التاريخي العميق - الذي ترد فيه كلمات ذات علاقة وثيقة بالموضوع مثل: سنن، مداولة، تمحيص - قاعدة أساسية في مسألة تدهور أو سقوط الدول والحضارات. فهو يقرر - ابتداءً - عدم ديمومة أي منها ولا يستثني المسلمين: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وقد قال: (بين الناس). بمعنى عموم هذه السنة التي لا محيص عنها والتي تقوم - بلا ريب - على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل البشري نفسه.

إن القرآن الكريم يعرض لمبدأ (المداولة) بوصفه فعلاً دينامياً يستهدف تمحيص الجماعات البشرية، وإثارة الصراع الدائم بينها، الأمر الذي يتمخض عن تحريك الفعل التاريخي، وإيجاد التحديات المستمرة أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك.

والمداولة لا تنجيء في كتاب الله بصيغة حتمية مقفلة ونزوع مترع بالتشاؤم كما هو الحال في العديد من المذاهب الوضعية. لكنها — على العكس — توحى بالحركة الدائمة، والتجدد، والأمل، وتقرر أن التاريخ ليس حكراً على أحد، ومن ثم فلا ميرر لليأس والهزيمة، فَمَنْ هُمْ في القمة الآن، ستزل بهم حركة الزمن إلى الخضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها من خلال فعلهم وحركتهم واختيارهم إلى القمة. إن المداولة القرآنية تحمل شروط إيجابيتها التاريخية كافة: حركة العالم المستمرة، وتمخض الصراع الفعال، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان: ﴿وَلَا

تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى الأشكال أو الصيغ التي يقدمها القرآن عن "العقاب" أو "السقوط" بسبب ارتباطها بالموضوع الذي نتحدث عنه. ويجب أن نلاحظ أن العلاقة بين التعبيرين وثيقة، إذ أن سقوط أية تجربة لن يجيء إلاّ بمثابة عقاب إلهي مباشر، أو غير مباشر عن طريق السنن التاريخية التي تعمل من خلال الإنسان والجماعة بسبب نكول الأخيرة عن أداء دورها المطلوب وتملصها من مسؤولية الاستخلاف ومطالبه الأساسية.

وهذا العقاب، أو السقوط، بمفهومهما الشامل، لا يجيئان إلاّ بعد أن تكون الجماعة قد استنفذت مبررات استمرارها، ومن ثمّ فإن أية ضربة توجه إليها تكون كافية لإزاحتها من مواقعها وفسح الطريق أمام الجماعات الأكثر فاعلية وفقاً للمفهوم القرآني للمداولة.

وهكذا قد تجيء هذه الضربة على شكل غزو خارجي، أو عصيان داخلي، أو اضطراب طبقي، كما أنها قد تجيء بصيغة كارثة طبيعية قاسية تفوق في تحديدها قدرة الجماعة المفككة على الرد والصمود: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)﴾ (الأنعام)، ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (98)﴾ (الأعراف).

وليس بالضرورة أن يتمخض العقاب أو السقوط عن إبادة نهائية للجماعة أو تصفية جسدية لا تبقي لها أثراً، كما كان الحال مع عدد من الأقوام البائدة، إنما هو التمزيق والتفكيك والتشتت الذي يتسبب في إرغام هذه الجماعة أو تلك على التنازل عن مركزها القيادي، والتراجع إلى الخطوط الخلفية لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى، بعد أن كانت متبوعة مطاعة: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)﴾ (الأنعام)، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا

تَصَرُّوْهُ شَيْئًا اِنَّ رَبِّيْ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٧﴾ (هود).

وبسبب من واقعية القرآن وتأكيده المسؤولية البشرية، فإنه يخاطب الجماعة المسلمة نفسها، كما يخاطب أية جماعة مؤمنة، بأنها ستلقى المصير نفسه بمجرد تخليها عن أداء دورها الفعال في العالم والذي قادها إلى مواقع القيادة والشهادة على الناس: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمُ﴾ (38) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (54) (المائدة).

وتبقى علاقة الاستبدال هذه ماضية إلى أهدافها، تداول الأيام بين الناس، بإرادة الله، وتضع أقواماً وترفع آخرين: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْشُونَ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاسْكِهِنَّ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)﴾ (الدخان).

وهذا الاستبدال التاريخي أو الحضاري الذي يحدثنا عنه القرآن في أكثر من موضع لا يجيء وفق أساليب متعسفة ومباشرة ومقتضى حدود زمنية صارمة كالأرقام، إنما هي سنن الله في التاريخ وإرادته النافذة من خلال "النواميس" ذاتها التي تؤول إلى تحقق هذا الهدف الخطير: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (13) وَلَنُصَبِّحَنَّكَُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) ﴿ (إبراهيم)، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) ﴿ (الأنبياء)، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (137) ﴿ (الأعراف)، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ (55) ﴿﴾ (النور).

- انخسار الجهاد وتضاؤل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: منذ قيام دولة الإسلام في المدينة وطيلة عصر القوة والحيوية كان الجهاد على الجبهة الخارجية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الداخل من ضرورات الحياة الإسلامية على مستوى الدولة والأمة. ولقد أتاح هذا للنشاط الحضاري ديمومة وازدهاراً؛ إذ كان الجهاد يحمي الأرض ويمنحها إمكانات مضافة تعين الأمة على المزيد من التفوق والعطاء، ليس فقط بوضع المسلم والجماعة في بؤرة الوعي والفاعلية، ولكن بإضافة قوى جديدة على المستويات البشرية والمادية والأدبية تعين على المزيد من التنامي العقدي والسياسي، والحضاري في نهاية الأمر.

وفي الداخل كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء نفذته الدولة وأجهزتها المختلفة، أو النخبة متمثلة بالفقهاء والدعاة والمعلمين، أو الأمة نفسها من خلال شرائحها الاجتماعية المختلفة، كانت هذه الممارسة التي طالما أكدها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تضع المجتمع المسلم في حالة الالتزام الضرورية بمطالب هذا الدين، الأمر الذي كان يمنح هذا المجتمع الحماية من التفكك والتسيب، ويدفعه إلى المزيد من الجهد والإحسان مما هو ضروري لكل فاعلية حضارية.

وعلى مدى مساحات واسعة من تاريخ الإسلام، كانت الحركة الجهادية ماضية إلى أهدافها، سواء بقيادة السلطات المركزية كالراشدين والأمويين والعثمانيين، أو في ظلال السلطات الإقليمية، كالذي تم - على سبيل المثال - على أيدي الإمارات والممالك الإسلامية في المشرق والمغرب.

ولكن، وبمرور الوقت كثفت القيادات الإسلامية عن حمل أمانة الجهاد، وتساهلت - في الوقت نفسه - في متابعة مطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك ذلك لأبناء الأمة وشرائحها المختلفة، يجاهدون، أو يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر، على خيارهم، وحيثما أتاحت لهم الفرص الضيقة. ولم يكن الأمر في الحالين يحقق المطلوب في وتأثره المناسبة، ولذا كان الجهد ينحسر إلى حدوده الدنيا - أحياناً - فيفتح

الطريق لتآكل الأرض وعدوان الآخر، من جهة، وللتفكك والفساد الأخلاقي والاجتماعي، من جهة أخرى، الأمر الذي كان يحدث تأثيرات سلبية في غاية الخطورة، على الأداء الحضاريّ الذي راح ينحسر هو الآخر بالضرورة ويتعرض للفوضى والتراخي.

صحيح إن الدعاة والطلبة والتجار والمعلمين مضوا - في عصور غياب الدولة الإسلامية - يجاهدون بالكلمة وينشرون الإسلام في مساحات واسعة من الأرض في آسيا وإفريقيا، وينتقلون بها إلى حالة التحضر بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، لكن هذا وحده لم يكن يكفي، لأن الذي كان يحدث داخل الأرض الإسلامية هو نوع من فك الارتباط، بدرجة أو أخرى، بين قيادات الأمة ومهمات الجهاد ومطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما أحدث خنادق عميقة بين الإنسان والعقيدة، تسلل منها التفكك والفساد.

ومن الضروري الإشارة إلى أن انحسار الجهاد وتضاؤل فاعلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يرتبط بتضاؤل وغياب الدافع العقدي الذي يصنع الدول والحضارات، ويمارس - في الوقت نفسه - دوره الخطير كمعامل يشد مسيرتها، ويوحد معطياتها، ويزيدها فاعلية وتركيزاً.

ومعروف لدى فلاسفة التاريخ ودارسي الحضارات، أن الحضارة التي تتمخض عن عقيدة ما، يرتبط مصيرها إلى حد كبير بدوافع نشوئها، فإذا ما ضعف الدافع العقديّ، أو عانت المعطيات الحضاريّة من تقطعه وغيبابه، بهذه النسبة أو تلك، فقدت قدرتها على النمو والاستمرار، وتفككت الأواصر التي تشد أجزائها وتحركها صوب هدفها المرسوم.

- غياب مفهوم التوحيد وتسلسل الشرك والصنمية: التوحيد - كما هو معروف - عصب التصور الإسلامي للكون والحياة والوجود والإنسان، ونقطة الارتكاز الأساسية فيه، وهو في حالة تألقه وصفائه وحيويته وانطباقه الباهر على المعطى القرآني والنبوي يفعل المعجزات، و"ينقل الجبال عن مواضعها" إذا استعرنا عبارة رجاء جارودي في كتابه وعود الإسلام.

فهو بالنسبة لحركة المسلمين في العالم بمثابة الدافع والهدف في الوقت نفسه، وهو بهذا ينطوي على قدرة مدهشة في تنزيل مطالبه وحشياته على كل مفاصل الحياة الإسلامية ومفرداتها، فيبينها وفق رؤيته ويصبغها بالصبغة الإلهية التي تميزها عن معطيات الآخرين.

ولقد كانت حضارة الإسلام، في مساحات واسعة منها، انعكاساً أميناً للتوحيد الذي كان يشكلها، وينفخ فيها الروح، ويدفعها للصيرورة والتنامي.

ومن الطبيعي أن أي خلل يصيب مفهوم التوحيد، أو غبار قد يعلق به، يقود بالضرورة إلى حالة السلب المقلبة التي تملأ الفراغ والفجوات بأوهامها وظنونها، وهي في هذه الحالة استدعاء لمختلف صنوف الشرك والصنمية والطاغوتية، التي تبتز الإنسان المسلم وتستلب روحه وقدراته الفعالة، وتهدر حرته وكرامته، وعليه، فإنها تفقده القدرة على الفعل والإبداع والعطاء، كما أنها تفقد الأداء الحضاري وحدته وتماسكه وتميزه، وتدفعه إلى المزيد من الترهل والتفكك والسكون.

ليس ثمة خيار، فإما أن تتعامل الدولة والأمة والإنسان مع التوحيد في حالته السوية الواضحة المستقيمة كالسهم، فيما أعطاه القرآن الكريم والسنة النبوية مساحات واسعة، وإما أن تنحدر شيئاً فشيئاً صوب التعددية والصنمية التي هي بمثابة السرطان الذي يبدأ حيناً لا يكاد يرى، ثم ما يلبث أن ينتشر كالطفح لكي يفتسر عقل الأمة وروحها، وقدراتها.

ولطالما حذر القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ من هذا المصير الذي كان أحد العوامل الأكثر خطورة في عرقلة تنامي الحضارة الإسلامية، ودفعها إلى التآكل والضمود.

"إن أعظم ما أهدته هذه الأمة للناس هو التوحيد، بكل ما يحمل من معان وقيم وأخلاقيات... والمسلم المعاصر الذي تأثر بالغزو الفكري، وصار يستمد تقويمه لنفسه

¹ للاطلاع على نصوص الأحاديث الصحيحة حول الموضوع، ينظر: عماد الدين خليل وحسن الرزق، دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1999م)، الفصل الخامس. محور البشوك والوثنية.

فيها إلى استشارة صحابته الكرام، ويعمل بمشورتهم، لكي تتأكد لنا قيمة الشورى والحرية في نسيج المعطى التشريعي والتاريخي لهذا الدين.

وما حدث في عصر الراشدين، والمدى الواسع للحرية والشورى الذي منحه الخلفاء الأربع - رضي الله عنهم - لأبناء أمتهم أمر معروف. ولقد كان عصر الراشدين هذا، والخبرات الشورية التي شهدناها، بدءاً من اختيار الخليفة وانهاء بطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بمثابة مرآة تاريخية لما يجب أن يكون عليه الحال في البيئات الإسلامية.

لكن الذي حدث، بدءاً من الحرب الأهلية الأولى، فيما أطلق عليه اسم "الفتنة" بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، وما تلاها من وقائع وأحداث، مروراً بضرب مبدأ الشورى وإقامة الملك الوراثي العضوض، ووصولاً إلى التفرد بالسلطان بعيداً عن خيارات الأمة ومصالحها الأساسية، بل بادعاء نوع من التفويض الإلهي واعتبار الخليفة ظلاً لله على الأرض، وغيرها من المعطيات المضادة لروح الإسلام الشورية، قاد الأمة إلى طرق مسدودة لم تحظ فيها بالقدر المناسب من الحرية التي تفجر طاقاتها المبدعة وتعينها على مواصلة العطاء.

وعلى الرغم من أن الانكسارات والمظالم السياسية لا ترتبط بشكل مباشر بالضرورة الحضارية، على الأقل فيما شهدته تجربة المسلمين عبر العصور التي بلغ فيها الازدهار الحضاري قمة منحناه، إلا أنه على المدى البعيد، لابد وأن تقود التداعيات السياسية والإحساس المتراكم بالاستبداد إلى تضائل الفاعلية، وإصابة العقل المسلم بالعقم والشلل.

من أجل ذلك أولى الرسول ﷺ هذه المسألة اهتماماً كبيراً، وقدم لأبناء أمته جملة من المؤشرات في أحاديثه وأفعاله كانت أشبه بضمانات للعمل السياسي تحميه من الانحراف وراء الاستبداد، وتجاوز وجود الأمة وخيارها الحر.⁴

لقد كان الاستبداد السياسي وراء سقوط العديد من الدول والكيانات السياسية

⁴ انظر: المرجع السابق، محور الأمة والسلطة.

من أجل ذلك يدعو القرآن الشعوب لكي تتحرك وترد على الظلم وتفك الارتباط به حتى لو اقتضاها الأمر الهجرة إلى بيئات أخرى أكثر حرية وعدلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98)﴾ (النساء).

ويحذر القرآن الكريم من أن "الفتنة" التي تتمخض عن ممارسة الطغيان وانحراف القيادات لا تنزل على رؤوس السلطة ورموزها فحسب، وإنما قد تلحق بالمجتمع كله، بسبب من التداخل الصميم في الممارسة الاجتماعية بين الحاكم والمحكوم، ومن تحمل جماهير الناس نصيباً كبيراً من الفتنة، والنتائج المترتبة عليها بسبب سكوتها وإقرارها وعدم رفضها ومقاومتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)﴾ (الأنفال).

- الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية: وامتداداً للاستبداد السياسي شهدت الأمة منذ فترات مبكرة فصاماً بين قيادتيها الفكرية والسياسية.

"وإذا كانت غلبة الأعراب على جيش الفتح وإسقاط الخلافة الراشدة وإقامة ملك بني أمية في موضعها، السبب الأول للتغيير والانحراف - في مجرى التاريخ الإسلامي - فإن ما نتج عن هذا التغيير الظاهر الملموس من تغيير معنوي كان أشد خطراً وأبعد أثراً، ذلك هو الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية والذي كان أساساً مهماً لما نجم بعد ذلك من عوامل الضعف والتدهور والتمزق وتراجع الطاقة العظيمة التي فجرها الإسلام في نفوس الناس والأمم.

"فبعد قيام سلطان العصبية والأثرة والقهر في نظام المجتمع الإسلامي، فإن القيادة الفكرية الإسلامية الملتزمة المتمثلة في أرض الحجاز وحاضرة الخلافة الراشدة، لم تقبل

والامتدادات التي كانت أثراً من آثار الدفع الإسلامي الأول والتي أفسح لها الطريق ضعف الأمم المحيطة وانحطاطها، وذلك على الرغم مما لحق الأمة الإسلامية من تدهور الكيان وضعف طاقة الدفع، لأن الأمر هنا هو أمر نسبي فما تزال في ذلك الوقت طاقة الدفع الإسلامي نسبياً كبيرة، ولذلك من المهم ألا يخفى على الناظر ما تخفي التراكمات والمظاهر خلفها من حال مصادر طاقة الأمة وما أصاب هذه المصادر من اضمحلال وعطب، فإن هذه التيارات الكلية أمر لا يسهل ملاحظته بوضوح إلا على المدى الطويل حيث تتضح الآثار وتتساقط الواجهات ويتآكل التراكم وتبتدى التشوهات الفكرية والاجتماعية جلية واضحة مما نراه واضحاً في حال الأمة اليوم".⁵

- طغيان القبلية والإقليمية والعرقية على مفهوم الأمة: أكد الإسلام - كما هو معروف - مفهوم الأمة، وجاء هذا التأكيد في أكثر من موضع في كتاب الله تعالى.⁶ وكان عصر الرسالة سعيًا موصولاً لتحقيق هذا المفهوم الذي استكمل أسبابه بإعلان "براءة" في العام التاسع للهجرة وتصفية الوجود الوثني.

وجاء الراشدون - رضي الله عنهم - لكي يمضوا خطوات واسعة أخرى في تعزيز هذا المفهوم ومدته إلى أوسع الآفاق، حيث تحققت عالمية الدولة الإسلامية، وأصبح مفهوم الأمة ينطوي على كل الجماعات والشعوب التي انتمت إلى هذا الدين، بغض النظر عن ألوانها وأصولها القومية وبيئاتها الجغرافية. وقد أتاح هذا المفهوم بصيغته الواقعية فرصة فريدة لتلاحق الخبرات، وإغناء الحضارة الإسلامية بالمزيد من الخصب والعطاء.

ولكن ما لبثت النزعات التفكيكية أن أخذت تطل برأسها منذ بدايات مبكرة، ونشب صراع قاس ومرير بين تيارين هما تيار الإسلامية بمفهومها الوحدوي، وتيار العرقية أو القبلية بمفهومها الانفصالي الضيق. وقد انعكس هذا في جملة حلقات خطيرة عبر التاريخ الإسلامي منذ عهوده المبكرة، من مثل الردة والفتنة والصراع الدامي بين عرب الشمال وعرب الجنوب (أو بين القيسيين واليمانيين) وصولاً إلى الحركة

⁵ عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم (فريجينا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1994م)، ص47-50.

⁶ انظر سورة البقرة: 128، 143، آل عمران: 104، 110، الأعراف: 181، الأنبياء: 92، المؤمنون: 52.

تقلص دور الأصحاب بسبب السن والاستشهاد. لقد مكن هذا في النهاية للأعراب من جيش الدولة بكل ما حملوه معهم إلى جانب معالم الإسلام العامة من المفاهيم القبلية والعصبية والذين لم تخضع نفوسهم لما خضع له الأصحاب من تربية وتدريب وتوعية على مدى سني الدعوة والمعاناة، وعبر عقود بناء الدولة والمجتمع المسلم بقيادة رسول الله ﷺ وأوائل الخلفاء الراشدين.. ولذلك كله كان لابد من أن تنشب الفتنة وأن تسقط الخلافة ليقوم مقامها سلطان القبلية والعصبية والاستثثار والاستبداد..⁸

- **الظلم الاجتماعي:** إذا كان التفسير المادي للتاريخ قد أعطى الصراع الطبقي الدور الأساس في المتغيرات التاريخية الحاسمة، بما في ذلك قيام الحضارات وتدهورها وسقوطها، ووقع في أسر التفسير أحادي الجانب بإهماله العوامل الأخرى التي لا تقل أهمية، أو عدم منحها المساحة التي تستحقها في الفعل التاريخي، فإن مما لا ريب فيه أن الظلم الاجتماعي، وسوء توزيع الثروة، وتشرذم المجتمعات إلى أقليات تملك وتحكم وأكثريات تجوع وتمتهن، فهي من العوامل الخطيرة في تفتيت الأمم والجماعات، وتدهور الدول والحضارات وسقوطها.

ولقد حذر القرآن الكريم من هذا المصير ودعا إلى بناء مجتمع يحكمه العدل وتظلله الوحدة ويسوده التكافل.⁹ وأكد الرسول ﷺ في العديد من الأحاديث أن العدل والتكافل هما من مقتضيات المجتمعات التي تؤمن بالله ورسوله وأن غيابهما ينذر بسوء المصير.¹⁰

ولقد شهد المجتمع المسلم في عصر الرسالة، وعبر مساحات واسعة من عصر الراشدين، تجربة فريدة يسودها العدل والتكافل، الأمر الذي أعان الأمة الناشئة - من بين عوامل أخرى - على التوحد والتمكن - بالتالي - من مجابهة التحديات وتحقيق

⁸ عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ص 46.

⁹ انظر: عماد الدين خليل، مقال في العدل الاجتماعي، ط 2، القسم الثاني، ص 33-66.

¹⁰ انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزق، دليل التاريخ والحضارة، محور العدل والتكافل والسلام الاجتماعي والظلم الاجتماعي.

ويكفي أن نتذكر أن العديد من الثورات والحروب الأهلية التي استنزفت الأمة إنما كان دافعها الأساس رفع الظلم وتحقيق العدل، والعودة بالحياة الإسلامية إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

- الترف والتكاثر: من المتداول على ألسنة الناس في كل زمن ومكان المقولة المعروفة "الترف يزيل النعم"، بل إنه - إذا أردنا الحق - يزيل الملك والحضارة معاً بسبب من الدور المدمر الذي يمارسه في أكثر من اتجاه.

ولقد أولى القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ اهتماماً ملحوظاً بهذا العامل وأشار إليه، وحذرا منه في مناسبات عديدة وصيغ شتى،¹¹ الأمر الذي يؤكد خطورة الترف على ثلاثية: الدولة، والأمة، والحضارة.

إن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة كلها التي تسكت عليه، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش بصائرهم ويطمس على أرواحهم، ويمحو كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأُتْرِفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (34)﴾ (المؤمنون)، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)﴾ (الإسراء)، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117)﴾ (هود).

وتبقى سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ وتتخذ من المترفين أداة تسوق بها القرى والدول والحضارات إلى مصائرها المحتومة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا

¹¹ انظر: المرجع السابق، محور المال.

على الشعراء والمرتزة والمتملقين ومهرجي الملوك ووعاظ السلاطين... إلخ. بمجرد مقارنة سريعة بين الحالتين يتبين للمرء حجم الدور الذي لعبه الترف بأوجهه كافة في إلحاق الأذى والدمار بينان الأمة وعرقلة نموها الحضاري.

- التحلل الخلقي والسلوكي: ترتبط الحالة الأخلاقية ومفردات السلوك أشد الارتباط بالوضع الحضاري، فهي تعينه على التماسك والنمو في بعدها الإيجابي وتقوده إلى التفكك والانحيار في بعدها السلبي.

وقد تبدو المسألة في ظاهرها أمراً فردياً، ولكنها في حقيقة الأمر تمس العلاقات العامة والبنية الاجتماعية في الصميم ووفق مستويات شتى تؤول في مجملها إلى إلحاق الدمار بالنشاط الحضاري.

فبدءاً بالممارسات المنحرفة التي تمس السلوك، كالجنس والفجور والانغماس في الملذات، وتفشي الخمر والميسر والغناء والرقص والفحش، وانتشار ظاهرة القيان والغلمان.. وانتهاءً بمنظومة القيم التي تمس العمل والسلوك كالغش والكذب والمنفعة والأثرة والكبر والرياء والغدر والنفاق والخيانة وشهادة الزور، وتضاؤل الإحساس بالمسؤولية، وغياب رقابة الضمير، والتدليس، وعدم الالتزام بالعهود وانعدام الأمانة.. إلخ.

عبر هذه المساحات الواسعة من الممارسات اللاأخلاقية يجد الفعل الحضاري أن فرصته للاستمرار والإبداع والتألق قد ضُيِّق عليها الخناق، وحلت القيم والممارسات السلبية محل بدائلها الإيجابية، لكي ما تلبث أن تتكاثر بصيغ المتواليات الهندسية وتقود الحركة الحضارية إلى التباطؤ والانحيار.

ولقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية اهتماماً كبيراً لهذه المسألة، وتحدثا عنها، وحذراً من مغبتها في أماكن شتى، ومن زوايا مختلفة، وأكدوا ضرورة الالتزام الخلقي وتكوين أخلاقية خاصة بالجماعة المؤمنة تنبثق من أعماق الفرد بقوة الإلزام الديني، ثم تمضي لكي تغطي شبكة العلاقات الاجتماعية من أقصاها إلى أقصاها.¹⁴

14 انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزق، دليل التاريخ والحضارة، محور حسن الخلق، والمرأة، وسوء الخلق.

من مبالغة، فضلاً عن أنها وردت - بالدرجة الأولى - في كتب الأدب كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه والمستطرف للأبشيهي... إلخ. وهي مصادر يصعب التسليم بمصداقيتها على مستوى التحقيق التاريخي، كما سبق وأن نبه إليه ابن خلدون في المقدمة¹⁵. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الذي يمكن قبوله من الروايات المتعلقة بالموضوع، يكفي لتأكيد الدور الواسع الذي مارسه العامل الأخلاقي والسلوكي، في عرقلة تنامي الحضارة الإسلامية، وسوقها - إلى جانب عوامل أخرى - إلى التآكل والانحطاط.

ولنأخذ على ذلك مثلاً من بين عشرات ومئات: انتشار الجوّاري والغناء والخمر الذي شغل الناس عن ذكر الله والجهاد في سبيله والتفرغ لمعالي الأمور. "لقد بدأ الفساد في العاصمة بغداد في قصور الخلفاء والأمراء أولاً، ثم في قصور الأغنياء عامة، حتى أصبح عملة سارية في العاصمة لا ينكره أغلب الناس سواء شاركوا فيه أم لم يكن لهم فيه نصيب. ولكن بقية الأرض الإسلامية لم تكن متأثرة بهذا الفساد المحلي في بادئ الأمر، لأنها كانت ما تزال تمارس الإسلام بالجدية التي يقتضيها الإيمان بدين الله. ثم أخذ الفساد يمتد من عاصمة الخلافة إلى عواصم الأقاليم بالعدوى، وتلك سنة ربانية تجعل الفساد "يظهر" في الأرض حين يتقاعس الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما كان حادثاً في المجتمع الإسلامي: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (41) (الروم)، وحين لا يرجعون يظل الفساد ينتشر ويتأصل حتى يحدث الانهيار. وقد ظل الفساد - في أكثر من ميدان - ينتشر ويتأصل، ويأكل كل حين قطاعاً جديداً من المجتمع، حتى انهارت الدولة العباسية على يد التتار، كما انهارت الأندلس في الغرب على يد الصليبيين"¹⁶.

- **الفساد الإداري:** وإذا كانت مهمة المؤسسات والنظم الإدارية تنظيم العلاقات العامة، وتقديم الخدمات، وتمكين الدولة من تسيير أمورها الأساسية في السياقات

¹⁵ انظر: عماد الدين خليل، حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (الدوحة: دار الثقافة، 1986م)، ص 54-65.

¹⁶ محمد قطب، واقعا المعاصر (الجزائر: مكتبة رحاب، ط 2، د.ت)، ص 137-138.

المختلفة، وحماية الحق العام، وتوجيه طاقات الأمة للعمل والإنتاج، وتهيئة الظروف المناسبة للإبداع والدفاع عن الأرض والعرض والحياة، وضمان الحقوق الدينية والمدنية لرعاياها كافة، أدركنا كم سيكون الفساد الإداري معولاً هداماً في جسد الأمة، وعاملاً مؤثراً في صيرورتها الحضارية.

وما من ريب في أن النشاط الإداري يرتبط أشد الارتباط بالممارسات السياسية في إطارها الشامل، ويأخذ معها علاقة طردية، فكلما زادت القيادة ظلماً وطمعاً، أصيب الجهاز الإداري - الذي هو الأداة التنفيذية لسياسات الدولة - بالتفكك والاضطراب. والعجز، وبالعكس. وهذا هو الذي دفع حكماً في تاريخنا، كالراشدين وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم، إلى منح اهتمامهم الجاد لهذا الجانب الأساسي في سياسات الأمم، ورأوا في صلاحه وتماسكه ضماناً للأداة التي تنفذ بها القيادة أهدافها الشاملة.¹⁷

وثمة صيغ شتى لا يكاد يحصيها عدّ للفساد الإداري، منها على سبيل المثال: وضع الرجل غير المناسب في المفاصل الحساسة لجهاز الدولة الإداري، وإبعاد أو إهمال العناصر الكفوة، بدءاً من الخليفة أو السلطان أو الملك أو الأمير، وانتهاءً بموظفي الديوان، مروراً بالوزراء والحجاب وأرباب الدواوين، والولاة والعمال والجباة وقادة الجيش.. إلخ. ومنها بيع مناصب الدولة لمن يدفع أكثر، ومنحه - بنقله - الفرصة لكي يجمع أكثر بغض النظر عن سلامة الأساليب التي يعتمد عليها لتحقيق هدفه هذا، ومدى انسجامها مع الحقوق العامة للمواطنين. ومنها انتشار الرشوة والمصادرة. وخواب الذمم، وأثرة الموظفين وجشعهم واستغلالهم، وتحكم مراكز القوى في المؤسسات الإدارية.

ولن نجد المرء كبير صعوبة في وضع يده على مئات الشواهد التاريخية للممارسات الإدارية الفاسدة التي شهدتها القرون المتأخرة - خاصة - من تاريخ المسلمين، والخندق العميق الذي حفرت بين الدولة والأمة، وبين المؤسسة وجهاهير الناس، فضلاً عن الفوضى والإرتباك وضياح المسؤولية داخل الحلقات الإدارية ذاتها، الأمر الذي مارس

17 انظر: عماد الدين خليل، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، فصل الإدارة والتخطيط؛ عماد الدين خليل، نور الدين محمود: الرجل والتجربة، فصل "في ميدان الإدارة والقضاء".

دوراً مؤثراً في وضع العراقيل أمام الجهد الحضاري وساقه - إلى جانب عوامل أخرى - إلى التباطؤ والشلل.

- التمزق المذهبي: مارس التمزق المذهبي وما تمخض عنه من صراع حاد على مستوى العقيدة والشريعة والسلوك، وغير قنوات الجدل أو القتال، دوراً خطيراً في تفتيت قدرات الأمة واستنزافها، وإعاقتها عن مواصلة مهماتها الحضارية.

وبنظرة سريعة على كتب الفرق الإسلامية¹⁸ يمكن أن نضع أيدينا على صورة مخيفة لتشظي الأمة المذهبي والعدد الأسطوري للفرق التي كانت الواحدة منها تتشردم بدورها إلى فرق شتى، ويكفي أن نطالع في كتاب الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي (ت 429هـ) ما يزيد على المائة فرقة شهدها تاريخ المسلمين حتى عصره.

ولم يقف الأمر عند حدود الجدل ولكنه تجاوزه في كثير من الأحيان صوب اعتماد القسر المذهبي، والعنف، ورفع السيف قبالة "الآخر" لمجرد اختلاف في الرأي أو تغاير في الموقف بالنسبة لهذه القضية أو تلك.

ويكفي أن نتذكر مسلسل الثورات الخارجية وما استنزفته من دماء الأمة وإمكاناتها العمرانية، ونتذكر معه الفتنة الحادة التي أثارها المعتزلة ضد الحنابلة بعد تبني السلطة العباسية للمذهب الاعتزالي منذ زمن المأمون، وصيغ القسر المذهبي، والاضطهاد والتصفية التي شهدها العصر العباسي الأول زمن المأمون والمعتصم والوائق (198-232 هـ/813-847 م).

ويمكن أن نتذكر - كذلك - مسلسل الفتن الطائفية بين السنة والشيعة في العصور العباسية التالية، تلك التي شهدتها أحياء بغداد وأسواقها بين الحين والحين، وذهب ضحيتها المئات والألوف فيما حدثنا عنه ابن الجوزي في المنتظم وغيره من المؤرخين. لقد كانت الظاهرة الفرقية - بحق - واحدة من أكثر عوامل الإعاقة الحضارية

¹⁸ انظر على سبيل المثال الحسن بن موسى النونخي، فرق الشيعة؛ وعبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق؛ وأبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

الغلو والتشدد والنزوع إلى الجدل النظري العقيم، بدلاً من المرونة والسماحة والتيسير والانصراف إلى الفعل والسلوك، وأخذ بمرور الوقت يغطي جسد الأمة كالبثور السوداء، ومال العديد من المثقفين والعلماء والفلاسفة والدعاة وشرائع شتى من الفئات والجماعات، فضلاً عن الفرق والأحزاب، صوب هذا الاتجاه الذي ينذر بالشر والعقم والأذى، والذي طالما حذر منه القرآن الكريم والرسول ﷺ.²⁰

إن الإسلام هو دين الحنيفية السمحاء واليسر والمرونة والجدل بالتي هي أحسن. والذي حدث هو أن هؤلاء أبحروا بالاتجاه المضاد فقادهم هذا إلى استنزاف قدراتهم العقلية في ساحات الجدل والكلام والمنطق والفلسفة، وصدهم عن توظيف طاقاتهم في سياقها الصحيح من خارطة النشاط الحضاري، فضلاً عن أنه عمّق الخنادق بين أبناء الأمة الواحدة، وقاد إلى "المذهبية" في أكثر صيغها - أحياناً - حدةً وتطرفاً.

"لقد وقع - في طور من أطوار التاريخ الإسلامي - أن احتكت الحياة الإسلامية الأصيلة المنبثقة من التصور الإسلامي الصحيح بألوان الحياة الأخرى التي وجدها الإسلام في البلاد المفتوحة، وفيما وراءها كذلك، ثم بالثقافات السائدة في تلك البلاد. واشتغل الناس في الرقعة الإسلامية - وقد خلعت حياتهم من هموم الجهاد، واستسلموا لموجات الرخاء - بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية التي تجمعت حول المسيحية، والتي ترجمت إلى اللغة العربية. ونشأ عن هذا الاشتغال الذي لا يخلو من طابع الترف العقلي في عهد العباسيين وفي الأندلس أيضاً، انحرافات غريبة على التصور الإسلامي الأصيل الذي جاء ابتداءً لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات وردها إلى التصور الإسلامي الإيجابي الواقعي الذي يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة للبناء والتعمير والارتفاع والتطهير ويصون الطاقة أن تنفق في الثثرة، والإدراك البشري أن يطوح به في التيه بلا دليل ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لابد من مواجهة آثار هذا الاحتكاك وهذا الانحراف، برودود وإيضاحات وجدل حول ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وحول القضاء والقدر، وعمل الإنسان وجزائه والمعصية

20 انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزق، دليل التاريخ والحضارة. محور الغلو والتشدد.

مارسوا عملية معكوسة، فبينما أراد الإيمان (بمفهومه الإسلامي) - ويجب التشديد على هذه الكلمة - أن يضعهم في بؤرة الفاعلية، ويجعلهم حاضرين في دائرة الممارسة والإبداع، أي "متحضرين"، اختاروا أن ينسحبوا شيئاً فشيئاً، وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم في الداخل والخارج، وأن يتحولوا - بالتالي - إلى كمّ لا يملك القدرة على التنامي، ومن ثمّ لا يملك ثقله في مجابهة التحديات التي راحت تداعى عليه من كل مكان حتى وصلت بالأمة إلى الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى، فيما سبق وأن حذر منه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، فلما سأله الصحابة - رضوان الله عليهم -: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ كان جوابه: "إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم، وليقدفن في قلوبكم الوهن". قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكرهية الموت".²²

- انتشار الصوفية المنحرفة والبدع والخرافات: تركت الرؤية الإرجائية، وغياب الاجتهاد والتجديد، وهيمنة التقليد والاتباع، وانتشار الزرف والفساد الخلقي والاجتماعي بين الناس، وتزايد الاستبداد والقهر السياسي، فراغاً كبيراً في عقل الأمة وروحها وسلوكها، جعلها تعاني مما يمكن تسميته بانخفاض الضغط الذي يسحب إليه - بحكم قوانين الحركة التاريخية - الرياح المدمرة التي تهب عليه من الداخل والخارج.

إذ ما لبثت أن طغت على الساحة حالات التوجه الصوفي الرهباني المنحرف عن سويته المعتدلة، المنسحب أكثر فأكثر من مواقع الفاعلية والحياة. وهبت على العقول والنفوس سموم الخرافة والبدعة والسحر والشعوذة والدجل والأوهام فيما سبق أن حذر منه كتاب الله وسنة رسوله،²³ من أجل ألا يستأثر بالحياة الإسلامية فيسوقها إلى مواقع الشذوذ والانحراف الذي تجاوز كل حدّ، حتى لحق العقيدة الإسلامية نفسها وجوهرها القائم على التوحيد فغطاه بدخن الحلول، وترهات التناسخ، وغبار وحدة

²² أخرجه أحمد وأبو داود.

²³ انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزق، دليل التاريخ والحضارة. محور انتشار الجهل والخرافة والبدعة.

العزلة مشجعاً للفسادين أن ينفردوا بالعمل دون تدخل ولا اعتراض، بينما كان الواجب الأول لأولئك المتطهرين أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويأطروا الحاكم على الحق أطراً، ويأصروه عليه أصراً كما أمرهم الله ورسوله ﷺ.

"ولا شك أن هناك في تاريخ الصوفية من كان عاملاً بتعاليم الإسلام، مجاهداً في سبيل الله بماله ودمه، أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، ناشراً لدين الله في الأرض، فهؤلاء لا ينطبق عليهم حكم الصوفية المنحرفة وإنما هم في الحقيقة زهاد وأن الحقوا بالصوفية.."²⁴

- غياب الاجتهاد وسيادة التقليد والاتباع: منذ قرون عديدة غاب الاجتهاد الذي تشكل به مفردات الحياة الإسلامية، وتنزل مطالب الشريعة إلى قلب الواقع، فتعيد صياغته وفق مقاصدها الأساسية، وتمنح حضارة الإسلام، ليس تميزها فحسب، وإنما قدرتها على التواصل والتجدد والعطاء، وتضع الأمة المسلمة في الصدارة بين الأمم، كما كان الحال عبر القرون المبكرة، عندما كانت تملك القدرة على الكشف والابتكار والإضافة النوعية، والبحث عن الجديد في السياقات الحياتية والمعرفية كافة.

وبدلاً من ذلك كله سادت روح التقليد والاتباع، وانطفأ العقل المسلم، وتوقف الفقه عن صناعة الحياة، وها نحن في القرون المتأخرة قبالة ركود الأداء، وغياب القدرة على الكشف والابتكار، وسيل من الحواشي والذبول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة، أو الثقة، لتجاوز التعلق بمعطيات السابقين، وأن يقولوا ما عندهم ابتداءً، كما فعل الآباء والأجداد زمن تألقهم الحضاري.

ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ، في حشود من الآيات²⁵ والأحاديث²⁶، إلى ضرورة العمل والإضافة والاجتهاد والإبداع والإتقان والإحسان، وإلى عدم الالتفات إلى الوراء، إذا اقتضى الأمر، من أجل الاستجابة لمطالب اللحظة التاريخية،

²⁴ محمد قطب، واقفنا المعاصر، ص 139-150.

²⁵ وردت لفظة "العمل" بتصرفاتها المختلفة في القرآن الكريم فيما يقارب الثلاثمائة والستين مرة. انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة: دار الكتب العربية، 1964م)، ص 483-488.

²⁶ انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزق، دليل التاريخ والحضارة. محور العمل والإعمار.

اهتمامه بقوانين العمران البشري، وبحث في عوامل ازدهاره وضموره. وهو يناقش في الباب السادس من مقدمته والذي يتناول "العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال"، العديد من المسائل المتعلقة بالموضوع من مثل: "إن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"،²⁸ و"إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها"،²⁹ و"أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم"³⁰.. وغيرها من التقاليد التي طغت على الحياة العقلية في العصور المتأخرة وساقتها إلى مزيد من التحجر والجمود.

- الصراع بين الثنائيات: ليس هناك دين قدر على تحقيق التصالح والوفاق بين كل الثنائيات التي تنطوي عليها الحياة والفكر والوجود كما فعله الإسلام. لقد أزال كل ما من شأنه أن يقف حائلاً بينها والتوحد والتوافق، وأعطى بذلك الفرصة لتصعيد وتنامي الجهد الحضاري وهو يجد نفسه قبالة لَمِّ لأقطاب الفاعلية، وتوحد في المسير والمصير.

وعلى العكس من هذا ما حدث في العديد من المذاهب والخبرات والأديان الوضعية والمخرقة حيث وضعت جل الثنائيات في حالة تقاثل أو تضاد، وأغري كل بالطرف الآخر، أو ما أسموه أحياناً بالنقيض لكي ما يلبث أن يشتعل الصراع وتهدر غيره طاقات وقدرات كان بمقدورها أن تدفع الفعل الحضاري أكثر فأكثر صوب التنامي والعطاء.

ويكفي أن نتذكر بعض نماذج هذه الثنائيات وتصالحها تحت مظلة الإسلام: الظاهر والباطن، الحضور والغياب، المادة والروح، القدر والاختيار، الضرورة والجمال، الطبيعة وما وراء الطبيعة، التراب والحركة، الوحدة والتنوع، الأخلاقية والمنفعة، الفردية والجماعية، العدل والحرية، الوحي والتجريب، الدنيا والآخرة، الفناء والخلود.

ويمكن أن نضيف إليها هنا ثنائيات أخرى من مثل: الدين والدولة، الذات

²⁸ مقدمة ابن خلدون، ج3، ص990-991.

²⁹ المرجع السابق، ج4، ص1207.

³⁰ المرجع السابق، ج4، ص1232.

التوحيد في قمتها ولا ريب.

ومع ذلك فقد حدث تقبل لبعض الأجسام والقيم الغريبة التي اقتبست بفعل التراجع والاحتكاك المباشر عن الآخرين، دونما قدر كاف من التفحص والاختيار، الأمر الذي اخترق صيرورة الحضارة الإسلامية وتوحد بها ببعض المعطيات المناقضة - بدرجة أو أخرى - لنبض هذا الدين ومقاصد شريعته، وأثر سلباً على مسيرتها في نهاية الأمر.

ومن جهة أخرى فإن رفض بعض الشرائع الإسلامية المتشددة التعامل مع خيرات الآخر وقبول العناصر الإيجابية في معطياته واتخاذ موقف مقفل تجاه الثقافات المحلية السابقة على الإسلام والحضارات المحيطة المعاصرة لظهوره، هذا الموقف لم يقل سوءاً عن سابقه من حيث إنه ضيّع على الحضارة الإسلامية فرصة أكثر غنىً وعطاءً للتلاقح والتبادل فيما يمكن أن يعينها أكثر على العطاء والإبداع.

ولكن - ولحسن الحظ كذلك - فإن هذه الشرائع لا تمثل سوى مساحات ضيقة في جسد الأمة، قبالة خط أكثر عمقاً وامتداداً، اختار مبدأ الإفادة من خيرات الآخر إذا لم تتعارض مع ثوابت هذا الدين، ذلك الخط الذي بدأه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقبوله بعض أنظمة الفرس والروم وخيراتهما الإدارية والمالية والعسكرية، واستمر فيما بعد لكي يغطي مساحات واسعة من أنشطة الحضارة الإسلامية التي تلت عن الآخرين الكثير من مفرداتها دون أن يلحق ذلك بشخصيتها المتفردة أي أذى أو تحريف.

- **تضاؤل القدرة على توظيف المكان:** أشرنا فيما سبق إلى أن القرآن الكريم أراد أن يضعنا في قلب العالم، ودعانا في عشرات المواضع ومئاتها إلى السير في الأرض واكتشاف سننها وطاقاتها، من أجل توظيفها لمهمة المسلم العمرانية في هذا العالم، وأنه - أي القرآن الكريم - توج ذلك كله بسورة كاملة تحمل اسم سورة الحديد وترفع في إحدى آياتها خطاباً واضحاً لا غموض فيه بخصوص استخدام الحديد أداة

ها هنا، بخصوص توظيف الزمن، أكد كتاب الله تعالى - كما سبق وأن ألمحنا - إلى ضرورة المسارعة والسبق، ووصف المؤمنين الجادين بأنهم ﴿يسارعون في الخيرات﴾ وأنهم ﴿لها سابقون﴾. وعلمنا رسول الله ﷺ أن على المسلم الاستفادة من عامل الزمن لتنفيذ مهمته العمرانية في العالم، وأن عليه أن يواصل السعي والكدح حتى لحظة النفخ في الصور، وإذا قامت الساعة وفي يد أحدنا فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فإن له بذلك أجراً.³¹

بمرور الوقت فقد المسلم إحساسه بالزمن، وأسلم نفسه للتراخي والكسل، فراحت هذه الفرصة النادرة تتفلت من بين يديه، فلم تجد معطياته الحضارية المهماز الذي يحفزها على المضي في الطريق حتى النهاية، وأصبح مرور الأيام والسنين والعقود والقرون، بل الحقب التاريخية لا يكاد يضيف شيئاً ذا غناء للخبرة الحضارية للمسلم، في الوقت الذي تنبه الآخر إلى قيمة الزمن وراح يسابق الأيام والسنين في تقديم المزيد كماً ونوعاً. وكانت النتيجة هذا الخندق العميق الذي يفصلنا عن التفوق الغربي، على الأقل في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية، وراحت تتردد على ألسنة الكتاب والمعلمين مقولة إننا مسبوقون بما لا يقل عن قرنين من الزمن، وأن محاولة اللحاق بالخصم تكاد تصبح مستحيلة بسبب هذا الحاجز الزمني الذي ينطوي على ألف إضافة وإضافة لحضارة الآخر حيث ظللنا نحن في مواقعنا من الزمن والمكان لا نكاد نبرحها إلا قليلاً.

- أخطاء القيادات الإسلامية المتأخرة: وثمة أخيراً - وليس آخراً - الخطأ الذي لا يقل خطورة عن العوامل السالفة. والخطأ - كما يقول السياسي الفرنسي تاليران - "أكبر من الجريمة"، ذلك الذي مارسته القيادتان المتأخرتان في تاريخنا: المماليك والعثمانيون. فهما، على دورهما المؤكد في مجابهة الخصم وملاحقته، أو التصدي لهجماته المضادة، أهملتا التصنيع بشكل ملحوظ، ولم تستجيباً بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية، وبخاصة تكنولوجيا التسليح، وراح الفارق يتزايد بمرور

³¹ ذكره علي بن عبد العزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه. انظر: بدر الدين العيني، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، باب الحرث والزراعة.

أمية وبني العباس قبل قرون وقرون. لكن الذي حدث بعد عصر التآلق ذاك، أن العثمانيين لم يفتحوا أعينهم جيداً على ما يجري في الورش والمصانع العسكرية الأوروبية، ولا ما يدرس في معاهدها وأكاديمياتها الحربية.

وقد يكون العثمانيون على إدراك هذه الحقائق لكنهم لم يحاولوا توظيفها في أن يتحركوا هم أيضاً وبالسرعة المطلوبة لتدارك الأمر والتحقق بالتسليح والتنظيم والخبرات التقنية والميدانية للحاق بالخصم، وعدم منحه الفرصة للتفوق الذي راح يتزايد بحساب المتواليات الهندسية التي جعلت - بمرور الوقت - تتجاوز الهوة أمراً مستحيلاً، ومكنت خصوم الأمة الإسلامية التقليديين بحكم الأمر الواقع ومنطق التفوق بالقوة، من تدمير الجدار العثماني الذي ظل يحميها لعدة قرون، ومن تسمية الدولة الفاتحة التي دوخت أوروبا بالرجل المريض، ومن إرغام الخليفة العثماني على مغادرة مركزه الذي كان يدير منه مقدرات العالم فأصبح بعده وكرأ لعملاء الغرب من الملاحدة والماسونيين والصليبيين واليهود.

وبهذا كله أرغمت الحضارة الإسلامية على تلقي المزيد من الضربات، وزحزحت عن مواقعها، ومُحي من الوجود العديد من مفرداتها ولم يبق منها بمرور الوقت سوى الخرائب والأطلال التي لم تنج هي الأخرى من مدافع الاتحاديين والعلمانيين وإصرارهم المسبق على فك الارتباط بين الأمة التركية وبين أصولها الحضارية.

- **العوامل الخارجية:** ومن خارج الجغرافيا الإسلامية هبت أعاصير أخرى لا تقل ضراوةً وعنفاً، لكنها ما كانت لتؤدي مهمتها في إضعاف واستنزاف وعرقلة الحضارة الإسلامية لو أن الأمة امتلكت الحد الأدنى من مقتضيات الاستمرارية التي أكد عليها الإسلام ودعا إلى التحقق بها صباح مساء.

لقد كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة الخارجيين المحملين بكل حيثيات الغزو، وأحياناً التخلف، بدءاً بتجاوز المطالب الأخلاقية والإنسانية التي يعرفها المسلم جيداً ويتشبث بها في لحظات الصراع، مروراً باستنزاف الخصم وتدمير ماكينته الحضارية، وانتهاءً باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحقه وتصفيته.

وعلى سبيل المثال، فإن الحروب الصليبية استنزفت قدرات الأمة، في البيئات الشامية والجزرية والفلسطينية والمصرية، على المستويات البشرية والاقتصادية، والحضارية في نهاية الأمر، والهجوم المغولي الكاسح أباد مئات الآلاف من المسلمين، وألحق الدمار بالمئات من مدنها، ودفع الألوف من علمائهم إلى الهجرة، وأصاب مسيرتهم الحضارية بتلف كبير.

وحركة الاسترداد الإسباني ذبحت أمة بكاملها يقدر تعدادها بمليونين وأربعمائة ألف مسلم، وأحرقت تراثها الذي يبلغ مئات الآلاف من المصنفات التي لم يبق منها في نهاية الأمر سوى ألفين.

ومحاولات الالتفاف الإسباني - البرتغالي استنزفت اقتصاديات الدول والبيئات الإسلامية التي هيمنت عليها وحولتها لصالح الإسبان والبرتغاليين الذين اكتشفوا طريقاً جديداً للتجارة العالمية أصاب من النشاط التجاري الإسلامي مقتلًا وساقه إلى مواقع الشلل والجمود.

والاستعمار القديم، الذي انطلق أساساً لاستنزاف موارد الشعوب المستضعفة، نفذ كل ما من شأنه إعاقه هذه الشعوب عن النهوض الحضاري، والإبقاء عليها في دائرة التخلف، بتدمير ممتلكاتها العمرانية، على الطريقة الفرنسية والإيطالية، أو بعدم إعانتها على التقدم العمراني، على الطريقة الإنكليزية.

ثم جاء الاستعمار الجديد لكي يمسح هوية الأمة الحضارية، ويبدل جهوداً متواصلة لاحتوائها وإرغامها على الاندماج في كيان الحضارة الغربية الغالبة.

ومرة أخرى، فإن هذه الهجمات جميعاً ما كان بمقدورها أن تفعل فعلها سلباً في مجرى الحضارة الإسلامية لو كان المسلمون أنفسهم قد تحصنوا بقيم البقاء والاستمرار. ولكنهم - بفعلهم الخاص في السياقات التي تحدثنا عنها - فتحوا على أنفسهم الثغرات التي تسلل منها الخصوم لكي يصيبوا منهم ومن حضارتهم مقتلًا فتوول - بانكسارات الداخل وضغوط الخارج - إلى التيسر والذبول.